كتب للمؤلف

ابليس يغني (مسرحيات عربية) دمشق ٩٤٣

في قصور الخلفاء (أقاصيص) بيروت ٩٤٤

تحت الطبع

تريستان وايزو لجوزيف بيديه

من مصادر هذا الكتاب

عدا الروايات المذكورة فيه

G. Lanson: Histoire illustrée de la litterature Française

A. Maurois : Cinq visages de l'Amour

E. Faguet : Amours d'hommes de lettres

J. Hytier : Les Romans de l'individu

Cat. 4 Dec. 53

843.08
M96nA
C.1

هدية أصدقاء الكتاب
الى
مجلة الأديب الغراء
مع التحية
٢/٤/١٤٥

صلاح الدين المنجد

نساء عاشقات

منشورات أصدقاء الكتاب

Cat. A Dec. '53

١٩٤٥
الطبعة الأولى
مطبعة الترقي بدمشق

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الى القارئ

هؤلاء نساء عاشقات ، بلوْن الحب فعرفنه ، وقديماً قالوا : لا يعرف الحب كالنساء . فمن أراد أن يجلو سره ، ويذوق حلوه ومره ، ويدرك نفعه وضره ، ويعلم خيره وشره ، ثم ينهج فيه نهجاً يبلغه الأمن والسلامة ، والراحة والهناءة ، فليقرأ أقاصيص النساء العاشقات ، وليأخذ منها ما يحلو له ويطيب ؛ فهو لا بد واجد ما ينير له الطريق . لأنهن يدركن من الحب ، برهف إحساسهن ، ورقة عاطفتهن ، وفرط حنانهن ، وغلبة ضعفهن ، ما لا يدركه الرجال .

وإنك لتلمح في سير هؤلاء العاشقات ، ألواناً مزركشة من الحب . وللحب ألوان لا تعد ؛ لأنها متجددة تجدد العواطف المنبجسة من القلب ، مختلفة كاختلاف الاحساسات الصادرة عن الشعور . وما دامت العواطف البشرية تتدفق وتنبجس ، جياشة زاخرة متباينة ، فأبشر بألوان من الحب لا تنفد ولا تنتهي .

ومما يزيد في قيمة هذه الألوان التي تجدها في هذا الكتاب ، أنها صوّرت بروايات خالدات كتبها عباقرة الأدب الفرنسي ، في القرون الأربعة الخالية . وإني لأنصح بقراءة

الروايات نفسها . ولعل كتابي هذا يغري المثقفين بنقلها إلى اللغة العربية .

وشأن آخر لهذه الصور ، ينتج عن أنها أخذت من الحياة . أعني أن مؤلفيها أحبوا أولاً ، ثم صوروا النساء اللواتي أحبوهن ، وما لاقوه في حبهن من ألم وفرح ، وعذاب ولذة . ثم وشوا بعض ما كتبوا ، بتزويق الخيال وزركشة الأحلام . ولذا تجد فيها مسحة من الواقعية جميلة ، وسنا متألقاً من الحلم طريف . وقد اضطرني ذلك إلى العناية بكشف أسرار هؤلاء الأدباء ، في حياتهم الخاصة ، وتبيان الصلات بين الواقع والخيال ، وإظهار النساء اللواتي أثرن في أولئك المؤلفين ، ومدى هذا التأثير ، وما صدر عنه .

وأرجو أن يكون كتابي وسيلة إلى عودة شبابنا ومثقفينا إلى روائع الأدب الغربي ، ونقلها إلى العربية ، فهذا أحوج ما نحتاج إليه في نهضتنا الأدبية الوليدة .

بستان الرئيس — دمشق

صلاح الدين المنجد

الأميرة د كليف

PRINCESSE DE CLÉVES

— ١ —

كان الحب في القرن السابع عشر، قرين البطولة وخدين الشرف؛ فكان إذا هام فؤاد الفارس بمن أحب، ولذعه الشوق ودلهه الحب، عمد إلى البطولة يجعلها ثمناً لحبه ووسيلة إلى هواه؛ فاذا أوتى العزم الشديد والقلب الحديد، ونال طيب الأحدوثة وبراعة الفروسة وشرف النقيبة، وكان فحلاً لا يُقرع أنفه ولا يُطعن عليه، متّع بالحب، وذاق مودة الحبيب.

والأميرة دُكليف تمثل ما ذكرته وتبين ماوصفته. ولعل من الخير، قبل أن نقصها عليك، أن نتحدث عن مؤلفتها مدام دُلافايّيت Mme de La Fayette، لأن في حياتها من الطرافة، ما في روايتها من الجمال. والحق أنها كانت من نوادر النساء. تلقت في يفاعتها وصباها أرفع ثقافة يمكن أن تُتلقى في ذلك الزمان، فتخرجت

على الشاعر المشهور ميناج Ménage فثقفها وأدبها . وسرعان ماظهرت رهافة ذوقها ، ورصانة عقلها، ورشاقة كتابتها . وتخطت العشرين ولمّا تتزوج . فاضطرت أن تبحث عن زوج لهـا . فصادفت يوماً الكونت دلافاييت ، و كان كريم المحتد ، طيب العِرق ، ضئيل العقل ، فتزوج بها وحملها إلى مزارعه في الضواحي ، يبتغي معهـا عيشاً يقطّعه بالنعيم . ولم يستطع أن يستهويها فلم ترض عنه ، فهجرته وقصدت إلى باريس ، وهناك صادقت هنريت دانجلترة Henriette d'Angleterre فأحبتهـا ، فكانت تغشى بلاط لويس الرابع عشر وتقطّع الأيام والليالي معها ، حتى إذا قضت هذه ، حزنت عليهـا ، وجفت البلاط وأهله ، واعتزلت الناس .

وذاع في باريس صيت مدام دُلافاييت ، وعُرفت بذكائها وفطنتها . ولم تلبث ان أصبحت مهوى الأنفس ، وبغية الشعراء والكتاب ، أشباه « هوبه Huet » و

« ميناج Ménage » و« لافونتين La Fontaine » ولكنها كانت عزوفاً عن كل ضجة ، أنوفاً من الظهور . كانت تحلم بالحب ، وتعجب بالبطولة . وكانت تحب الهدوء والسكينة ، تستلقي على سريرها الأرجواني الموشى ، فيتحلق أصدقاؤها ومطروها حوله ، تفتنهم بالسحر والذكاء ويفتنونها بالثناء والإطراء .

وعرفها « الدوق دُلاروشفوكولد Duc de la Rochefoucauld » ، وكان مغامراً ، تتبع نساء . وكان الناس يلهجون بذكره ، وقليل منهم من كان رآه . فاتصل بها وهي تذرف على الخمسين . تُرى أكان صديقها أم عشيقها ؟ ومهما يكن من أمر ، فقد قضى بقية حياته معها . فكان يزورها في قصرها كل يوم ، وكان في هذا القصر بركة ينصبّ فيها الماء ، ونافورة تنفر منها إلى الفضاء ، وخلوة مغطاة بالأعشاب والأزهار . فكانت تقضي الليالي والأماسي معه ، تحت العشب

والزهر . وقد تأتي ، بعض الأحايين ، مدام دُسيڤينيه Mme de Sévigné فيجتمعون معاً ، يثرثرون على حفافي سريرها الأحمر الموشى تارة ويتحدثون في الخلوة المزهرة أمام البركة تارة أخرى .

ومن العجيب أنها كانت تنقد حِكَمَ عشيقها أو صاحبها أحدَّ النقد . كان لديها نسخة منها . وكان تعلق عليها وتكتب في الهامش « هذا حق ؛ وهذا جيد » ، فاذا سخرت منه كتبت « هراء ، خلط ، كلام مبتذل ! » . ولقد قرأتْ يوماً قوله : « إن ما يسميه الرجال صداقة ، ليس سوى تجارة يكون للأثرة مطمح فيها ومربح .. » . فكتبت بجانبها : « هذا يصح في الصداقة العامة ، لا في الصداقة الحق » . وقرأت مرة قوله : « مهما ندر الحب ، فانه أندر من الصداقة الصحيحة » فقالت : « أعتقد أنهما متساويان في الندرة ، لأن في الصداقة حباً ، ولأن في الحب الصحيح صداقة » . وكتب « إن الذي يجعل

كثرة النساء لا يتأثرن بالصداقة ، هو أن الصداقة تصبح لا طعم لها عندما يذقن طعم الحب » . فأجابته : « لا ، بل لأن في الحب من كل شيء : فيه من العقل ، ومن القلب ، ومن الجسم » .

لقد تصادقا ، وأثر كل منهما في الآخر . لقد قالت : « منحني الفكر ، ولكني هذبت قلبه وأصلحته ! »

ومن الطريف أن تتمثل هذا الدوق الحكيم ، ذا الوجه الجهم ، والعينين الذرّافتين ، وبجانبه تلك المرأة اللطيفة ، يؤلفان الروايات ، ويتجاذبان أطراف الأحاديث . يذكران أيام لهوهما ، فيقص عليها مغامراته يوم كان ريان الشباب ، وتحدثه عن سحرها يوم كانت في رونق الصبى .

تلك هي قصة حياتها ، وإنها لقصة تثير الأسى . لقد حلمت بالحب والبطولة فلم تذقهما . وأحبت صديقتها هانريت ففجعها الموت بها ، ثم هي تلقى لاروشفو كولد ،

وقد تقضّى شبابه وذوى غصنه . شدّ ما أتمنيا لو التقيا في ريعان صباهما . إذن لروّاهما الهوى ولأرته فعلَ السحر .

وفي عزلتها ، وبجانب لاروشفوكولد ، كتبت مدام دُلافايت روايتها « الأميرة دكليف »

— ٢ —

وقرأ الناس قصة الأميرة ولهجوا بذكرها ، وصارت أحدوثة الكتاب والشعراء والنساء في المجالس والأندية والأسمار . ولقد كانت خليقة بأن تشغل الناس ، لأن الأهواء التي تتضافر فيها على قلب امرأة غض ، فتخيرها بين زوجها وحبيبها ، تثير الدهشة والعجب . فهنا زوجها جاف القلب كما تراه ، وهناك حبيبها يبدو لعينيها غزلاً بطلاً جميلاً . وأخذ الأدباء يسألون (بوسي رابوتان Bussy Rabutin) نقادة ذلك الزمان عن رأيه فيها . فكانت الرسائل تسرع اليه يسأله أصحابها : « أقرأت

الأميرة دكليف ؟ كيف رأيتها ؟ هل أعجبتك ؟ »

إن فيها نزاعاً قوياً بين الحب والواجب لا يقوى عليه النساء ، ونضالاً عنيفاً قد يتخاذل دونه الرجال ، وشرفاً لا يذود عنه إلا من كان ذا عزم ومضاء . وبرغم ذلك ، فإن الأميرة دكليف تغلبت على هواها ولم تضعف في نضالها ، وحافظت على شرفها ونبالتها .

ها نحن أولاء في قصر الملك هنري الثاني ، نجد آنسة صاغها النعيم وصقلها الترف ، كان اسمها « شارتر » ، وكانت ذات ذكاء وأناقة وجمال ، يتزوج بها الأمير دكليف ، وكان نبيلاً مهذباً ، فيحبها . ولكنه كان يعجز عن إظهار حبه لها ، ولا يبرع في إغرائها وإرضائها ، وكانت جباشة العواطف ملتهبة الإحساس ، تتحرق على ذواق الحب ؛ هذا الحب الذي سمعت به ، ولكنها لم تعرفه ، ولم تدر كيف يكون ولا أين تجده . وتقام في اللوفر حفلة يرقص فيها النساء والرجال ، تحضرها الأميرة ، ويحضرها

الفارس (دُنيمور De Nemours) زين الفرسان ، وحلية الشبان ، وأكثر رجال البلاط لباقة وأناقة . ويلمحها فيشخص اليها بصرُه ويُفتن قلبُه ، ثم يسعى اليها فيتراقصان . وينظر اليها نظرات كلهن شِباك وإغراء ؛ فتهتاج وتضطرب ، ثم تسارقه النظرات ، فيخفق قلبها وتحمر وجنتاها ، فتفر منه وقد علمت أنه الحب .

وشغل الفارس خاطرها . فسهرت الليل ، « وليل المحب بلا آخر » . وذرفت الدمع ، « ودمع العاشق لا ينفد » . إنه فارس فتان ، كيف تصل اليه ، وكيف يضمها بين ذراعيه ؟

وكتمت الأميرة حبها ، وسعت للقياه . ولقد دعيت ليلة إلى حفلة رقص أُخرى فاعتذرت عن الذهاب ، لأن فارسها لن يذهب اليها . واندفعت في الحب ، ولكنها أجفلت ذات يوم ، وقد بدا لها سوء ما صنعت . أتخون زوجها ؟ إنه زوجها مهما كان من أمره ، ولا بد من الوفاء .

وأفزعتها وخزات الضمير ولذعات الوجدان، فخافت العار. ولكن قلبها لجّ في شعاب الحب فضلّ وتاه. كيف تُرضي قلبها الجامح، و كيف تفي لزوجها المطمئن ؟ ولا تسل عن الأرق والسهاد، والأسى والبكاء، والحنين والأنين، والحسرات والآهات. لقد أحبته حباً صرفاً خالصاً. أفتجمع بين حبين، و كيف تغالب الوله وتدفع الشوق، وتفر من الحبيب ؟

وقررت بعد عذاب ونصب، أن تحدث زوجها بحبها. وتسأله إن كان يرى في ذلك حرجاً.

وتخلو الأميرة بزوجها: وإنه لمشهد من أروع مشاهد الحب. مشهد فيه من بطولة كورنيل ورقة راسين. إنها مفتونة بفارسها، والألم يفترسها، وإنه محب لها مطمئن اليها. هي تريد أن تخبره لئلا يمس شرفه، وهو يجهد كل الجهد لينجو من الوساوس، ويعلم أنها لن تخونه.

لقد ظنت أن صراحتها تدفعه إلى الإعجاب بها

وإكبارها ، ولكن هذه الصراحة أنضجت في صدره الحقد والحسد والغيرة ، فما تكاد تحدثه حديثها بطرف خاشع ، وقلب خافق ، وعين دموع ، حتى يشده ويبهت ، ثم يصمت ولا يشكو ، ويأسى بعد أيام فيموت .

وها هي ذي الآن وحدها ، قد خلا من كانت تخشى أن يُعرَّ شرفه . فلتسرع إلى فارسها الجميل ، لتنعم بين ذراعيه ؛ ولكن الأمر ليس كما ظنت . لقد سعى هو اليها ، وتقرب منها ، فصدت عنه . وأراد أن يتزوج بها فطردته . لقد اعتقدت أن عليها ، هي وفارسها ، التبعة في موت زوجها . وأن أحسن ما تكفر به عن ذنبها هو البعد عمن تحب . فاعتزلت الناس وعاشت وحدها . الحب في قلبها يهيج ويشتد ، وهي تصبر وتتألم ، لا تستطيع أن تُفرح القلب بالوصال . ثم تموت الأميرة حزينة ، تحلم بالحب ، وتفي للزوج .

تلك هي قصة الأميرة دكايف تدور حول حب عنيف يبعثه الإعجاب بالفروسية والبطولة والجمال ، ووفاء شديد يقتضيه الواجب وحفظ العهد ؛ فيتغلب الوفاء على الحب ، وتقضي الأميرة ينهشها الحزن ويذيبها الحنين ، ويتحدث الناس عنها ، ويتكلمون عليها ، ولكنهم ، جميعاً ، يعجبون بها ويطرونها ، ثم يرددون وهم يبتسمون : « ما أنبلها ! لقد كانت أميرة شريفة » .

هيلوئيز الجديدة

LA NOUVELLE HELOÎSE

كان الحب في القرن السابع عشر يرافق البطولة ويصاحب الشرف . ولقد رأيت أن الاميرة دُ كليف ، خشيت أن تؤذى في الحب فأفضت إلى زوجها بأنها احبتْ ، لئلا يمس شرفه وتعرّ كرامته . فلما أتى القرن الثامن عشر ، مالت المرأة إلى دراسة شمائل الرجل وعاداته من خلال الحب . وانقضى ما كان من قبل من حب هائم ، يُسهر الليل ويُذهل اللب ، ويضنى الفؤاد .

وما لبث الناس أن انطلقوا ... يلذّون ويحلمون . فساقهم هذا الانطلاق البعيد إلى الملل ، ودفعهم الملل إلى حب الطبيعة ، والرغبة في البساطة ، والبعد عن التكلف . مما هيأ النفوس لقبول رواية هيلوئيز الجديدة ، والعناية بها .

* * *

كان روسو قد أشرف على الخامسة والأربعين من عمره ، عندما كتب هذه الرواية . وكان قد نشأ ابن ساعاتي في جنيف . ثم ماتت أمه وهو صغير . وفر أبوه من رجال الحكومة وتركه فولج كل باب ، ودخل كل مدخل ، ثم مضى لاهياً متشرداً لا يحفل أحداً .

واتصل بمدام دفرنس ، فكانت خليلته وربيطته من غير أن تحبه . كما كانت جورج ساند ربيطة شوبان « Chopin » من بعد .

ثم تركها وصنع كل صناعة . فكان ناموساً لأرشمندريت ، ثم سفيراً ، ثم سارقاً ، ثم موسيقياً ، وإلى هذا كله ، كان فناناً ، حالماً ، مرهف الحس ، رقيق الشعور ، يحس جمال الطبيعة ، ويعشق اللذائذ الصافية البسيطة . وكان يرنو إلى زرقة السماء ، وخضرة الحقول ، وجريان المياه ... ويداعب في نفسه حلماً جميلاً .

وقصد باريس ، حالماً بالمجد . كان يتمنى نصر الأبطال

وخلود العباقرة . ولكن ماهو الثمن الذي ينبغي أن يؤديه ؟ لقد اخترع طريقة لترقيم الموسيقى ، وكتب غنائية لم ينشرها ، ثم إنه يحس أنه قادر على التأليف فهل يكفي هذا ...؟

وكان إلى ذلك أيضاً رقيق المشاعر ، ولكنه متكبر . وكان يعيش في الخيال . ويبتعد عن الواقع ، ويقول : « إن الإنسان لاينعم بما يناله ، بل بما يأمله . ولا يحس المرء السعادة إلا عند ارتقاب السعادة . » فرجل كهذا ، قد يجد في عزلته من النعيم مالا يجده بين الناس . ولكن هناك المجد .. وكيف يدركه ؟

واستطاع أن يتصل بمدام دوبان Mme. dupin التي كانت تستقبل عظماء باريس كلها ، وصادق ابن زوجها « فرانكويل » Francueil ، وكان هذا عاشقاً « مدام ديبيناي Mme d'Epinay » ، ثم انضم إلى جانب الفلاسفة وعندما وضع مجمع ديجون Dijon بالمسابقة خطاباً حول

الفنون والعلوم ، كتب دفاعه الشهير ثالباً محاسن المدنية :

« . . . أيتها الفضيلة ، أما نقشت مبادئك في جميع القلوب ، أو لايكفي ، لكي نعلم قوانينك ، أن ينعطف الإنسان على نفسه فيصغي إلى صوت ضميره ، عند صمت الأهواء . . . »

وذاع صيت روسّو ، وعُرف بأنه عدو لدود للعواطف المتكلّفة ، وأنه صديق الطبيعة . هذا أول لقب من ألقاب المجد ، فليفتش عن لقب آخر .

وفي السنة ١٧٥٢ ، مُثلت روايته « عرّاف القرية Le Devin du village » أمام الملك في فرساي ، وأوتيت حظاً كبيراً من النجاح فتطلع الناس كلهم إلى معرفة روسو والتحدث إليه .

لكن هذا العالم الذي استقبله ورحب به ، لم يكن قد خُلق له . ولم تكن أبهاء باريس ، وما فيها ، لتروقه . « كانوا يلهون ، يحاولون الجمع بين التفكر

والعقل ، ولا يتعمقون في المباحث خوف الملل . ويجنحون إلى الإيجاز ، ثم لاتجد واحداً ينقد رأيّ آخر ، أو يؤيده ، ويتعصب له ... »

فماذا يفيد روسو من هذه المحادثات ؟

وعزف عن الناس ، وانقطع إلى مدام ديبيناي ، في أحضان الطبيعة .

وهفت نفسه إلى تأليف رواية يدور موضوعها على الحب ؛ هذا الحب الذي لم ينعم به في أيام صباه ، وقد هاجه مايحيط به في عزلته هذه ، في دار مدام ديبيناي . لقد ذاق طعم حياة هادئة فيها راحة وهناءة وسذاجة . وتمتع بمرأى الغابات والحقول ، ولذّته أناشيد العصافير ، وأسكرته عبقات الأزاهير . إنها عزلة حلوة ، ولكن ، ما كان أكثر جمالها وأشد هناءتها ، لو كانت عزلة مخلوقين اثنين عن الناس ، عزلة قلبين متحابين يعيشان في دار كهذه ، وينعمان بطيب الحياة .

وكان الربيع الطلق قد أقبل يضحك ويغني، وفي كل مشهد من الطبيعة نداء للحب . فأغراه ذلك كله على كتابة رواية ما . فبدأ، وأحاط حوادثها بمنظر الطبيعة التي عاش فيها وتمتع بروائها ، أيام كان صبياً غض العود ، على ضفاف بحيرة جنيف . وسماها هيلوئيز الجديدة . لأنها تشابه مغامرة هيلوئيز وآبيلار ، المؤدب الذي عشق الفتاة التي عُهد إليه ان يؤدبها . وتخيل شاباً لانسب له ولا مال ، اسمه سان برو ، يحاكي روسو في خلقه ، ويخالفه في تبلده ، قد أُتي به ليؤدب جوليا ابنة السيد ديتانج الغني السويسري . وكانت قد أوتيت الجمال والشرف والتهذيب . فما أن رآها حتى أحبها . فكتم حبه . فلما ثار الهوى ، وضاق به ذرعاً كتب إلى جوليا رسالة حبه الأولى . وهي رسالة رقيقة تفضي إليها بحبه .

كان سان برو ، كروسو ، تؤثر فيه العواطف وتهزه

الأهواء . وكان ، كما قلنا ، خيالياً حالماً . فلم يطمع من جوليا بما يصعب نواله ويستحيل إدراكه ، بل كان يريد أن يقول لها : « إن ملامحك خلابة بهرت عيني »

« ... إن أبصارنا تتلاقى ، فتفلت من صدورنا بضع آهات في وقت معاً ، وتنحدر بضع دمعات ...

« ... لقد حاولت اليوم ، مائة مرة ، أن أرتمي على قدميك فأنديهما بعبراتي ، فيفل شجاعتي دائماً رعب قاتل ، وترجف ركبتاي ولا تطيقان ثنياً ...»

وينمو الحب في قلبي العاشقين . ويحاول سان برو أن يفر خوف الفضيحة فيسافر ، وتتبعه رسائلها تدعوه فيها لكن كيف السبيل إلى صون الشرف . كلا العاشقين قد أذلهما الهوى . وهما يريدان أن يبقيا شريفين طاهرين ، فكانت تتمنى ألا يجفوها وأن تظل صادقة في حبها إياه ، ولم يشأ روسو أن يغريها .. فتألم ويئس ، وأذعن ثم شعر بالملل ، وكان يراسلها فانقطع عن مراسلتها .

وعاد روسو إلى روايته يتمها ..

فتخيل أن جوليا تُجبر على زواج رجل روسي نبيل اسمه سان برو ، وتتطلب أن يحبها ، وأن يصونها ويحترمها .

ولكي تتم الرواية ، جعل روسو لهذين البطلين وصيفين يكتمان أسرارهما . فاتخذت جوليا ابنة عمها ، واتخذ سان برو صديقه ميلورد ادوارد . ويجتمع سان برو بجوليا ، وتكون معهما كلير في غيضة شعرية ، ويكون مشهد القبلة الشهير .

«فلما دخلتها ، دهشت لرؤية ابنة عمك تقترب مني وتسألني قبلة بدلال واستعطاف . فقبلت هذه الصديقة الفاتنة غير مدرك من السر شيئاً . ولكن رباه ! ماذا أصابني بعد لحظة ، حينما أدركت . لقد رعشت يدي ، وأحسست قشعريرة لطيفة تدب في جسمي ، وشعرت بفمك الوردي ، فم جوليا ، يلتئم فوق فمي ، وبذراعيك تضمان جسمي . أواه ! كلا ، ليست نار السماء بأكثر

تأججاً ، ولا أشد سرعة من النار التي سرت تلك اللحظة في جسمي . لقد كانت النار تندلع من آهاتنا وتتأجج في لاهبات شفاهنا ، وكاد قلبي يموت تحت عبء اللذة ، ثم رأيتك ، وقد شحب وجهك ، تغمضين عينيك الحلوتين ، وتتكئين على ابنة عمك ، ثم تسقطين على الأرض من الإغماء . عندئذ أطفأ الرعب سرورنا فلم يك نعيمي غير سنا خاطف كالبرق ...

« إن أثر الإحساس العميق الذي أحسسته لن يزول أبداً . احفظي قبلاتك ياجوليا . فأنا لا أستطيع احتمالها . إنهن شديدات الأثر ، يخزنّ ويحرقن حتى اللب » .

ويتأجج الحب ويفور وتقسم جوليا ألا تتزوج أحداً غير سان برو .

ويحاول سان برو أن يهدئ من فوران حبه ويخفف ثوران هواه . فلم ير بُداً من السفر . فغاب ، وفي إبان غيبته ، أعلم السيد ديتانج ، ابنته جوليا ، أن

زواجها رجلاً غير ذي نسب ونبالة مستحيل .

فلما عاد سان برو ، هزهـا الشوق ، وعطفها إليه الحنين . فتقربت منه ، وأزلها الشيطان ، فأضحت خليلته ، وعندئذ شعرت بوخز الضمير

« ليعزب هذا البربري إلي الأبد عن وجهي ، ليمض فلا يضاعف بحضوره آلام روحي ، ليكفّ عن التلذذ الوحشي بتأمل دموعي ، ماذا أقول ؟ وا أسفي على نفسي ! إنه ليس مجرماً . أنا المجرمة وحدي . إن مصائبي لمن صنع يدي ، وليس لي أن ألوم غيري » .

ويسعى ميلورد ادوار في إرجاع الأب عما عزم عليه ولكن سعيه كان فشلا . واضطر سان برو الى مغادرة سويسرة فقصد باريس .

وتكشف السيدة ديتانج بعد سفره ، رسائل العاشقين

« ضاع كل شيء ، وانكشف كل شيء . لم أجد الرسائل في المكان الذي خبأتها فيه ، مع أنها كانت فيه

أمس مساء ، لا بد أنها لم ترفع من مكانها إلا اليوم ، وقد تكون أمي وحدها استطاعت أن تراها ، ولئن رآها أبي ، فليكونن هذا آخر عهدي بالحياة ! »

ويقف روسو ، برسائله وروايته عند هذا الحد . وكان يحمل هذه الرسائل في حقيبته ، ويقرأها على النساء ، فيبكين رقة وأسى ، وكان يعتقد أن روايته قد تمت ، وأن الحبيبين افترقا إلى الأبد ، فلا لقاء ، لكن حادثاً يقع ، فيكون نتيجة لتلك القصة الخيالية . وهذا مثال واضح يفسر الصلة بين الرواية والحياة وبين الخيال والحقيقة

* * *

عرف روسو ، في هذه الحقبة ، مدام دوتو . وكانت هذه ، شأن كثيرات من نساء القرن الثامن عشر ، قد فركت زوجها وأحبت سان لامبير ، القائد الشاعر ، عاشق مدام دُشاتليه .

وصادف أن لجأت اليه - وهو في عزلته عند مدام

ديبيناي – وَحلةً قد بللها المطر . ثم زارته زورة ثانية ممتطية حصاناً ، وقد تزيت بزي الرجال .

يقول روسو : « . . . ورغم أني لا أحب شبيهات هذه السخريات ، فقد بهرت بشكلها ، وأحببتها . . . » .

لم تكن مدام دوتو ، جميلة بل كانت ذات سحر وجاذبية . وسرعان ما اشتد حبه ، فانتقل فجأة من العالم الذي كان يتخيله على الورق ، الى عالم فيه ما يلاقيه الهائمون من الوله والحنين والشكوى . وكانت ، تيّاهة طياشة ، ذات دلّ ورقّة ، لا تأبى على روسو النزهات في ضوء القمر ، أو القبلات على حفافي النهر . لكن قلبها كان شارداً . أسره رجل غير روسو ، وغير زوجها . رجل قائد خيل اليه أنه شاعر ، وأوهمته أنها صادقة في حبها إياه . ولم يشأ رسو أن يغريها . . فتألم ويئس وأذعن . ثم شعر بالملل ، وكان يراسلها فانقطع عن مراسلتها .

وعاد روسو الى رَوايته يُتمها ...

فتخيل أن جوليا تجبر على زواج رجل روسي نبيل اسمه ولمار قد أوتي بسطة من البلادة ؛ وأن سان برو ، يُذعن ، وقد يئس فيجعلها في حل مما كانت عاهدته عليه ، فلا تتزوج غيره . وتذعن جوليا إطاعة لأبيها ، وشفقة على حبيبها . ويضطرب سان برو ، فيسافر ليطوّف في البلاد . مسكينة جوليا ! إنها لم تذق من هواها غير القلق والخوف واليأس .. ولم تلق في طريقها غير حبيب أحبته ، فأبعد منها ، وزوج لم ترض عنه فقُرِّب اليها .

فلما طوّف كثيراً ، عاد فنزل عند ولمار نفسه زوج جوليا . وحادث جوليا أول محادثة ، وكانت خجلى ، وحاولت أن تبدي عذرها في زواجها ، ولكن زوجها فاجأهما ...

يقول روسو : « ... ولم تعبأ ، وظلت تتكلم بحضوره كأنه لم يكن . وعندما سكتت قال لي : هذا مثال من

الصراحة التي تسود هنا . وإذا شئت أن تكون فاضلاً حقاً ، فاتبع هذه السبيل . هـذا هو الرجاء الوحيد والأمثولة الطيبة اللذان أقدمهما اليك . إن أول خطوة نحو العار اخفاؤك الأعمال العلانية . إن حكمة واحدة يمكن أن تحل محل الحِكَم كلها . وهي : لا تعمل ولا تقل مالا تريد أن تنظره من الناس أو تسمعه منهم ... »

وحاولت جوليـا إدراك سلام القلب مع زوجها ، رغماً عن هواها القديم الذي يثور في فؤادهـا . وهكذا انقلبت الرواية إلى درس أو منهج للأخلاق

لقد أراد روسو أن يثبت أن الاخلاص بين الزوجين هو أهم واجبات الزوج شأناً ، وأن الهوى العنيف عندما تكون الفتاة عذراء ، إذا دام بعد زواجهـا من لاتحب ، يصبح جريمـة . وأن المرأة تستطيع أن تنشئ حياة سعيدة على أنقاض حب عظيم

وتقضي جوليا العيش مع زوجهـا ، في الحقول ،

يراقبان الخدم ، ويوجهان الزارعين ، ويعتنيان بالكروم

ويعجب سان برو ، بحكمة ولمار وجوليا ورجاحة عقليهما . ويصف الخدم والحديقة ، وصفاً ممتعاً ، ولكنه لم يستطع أن يطفئ لهب هواه ، أو ينسى حبه القديم . فقد كان كل شيء يذكره ويذكرها بنعيم مضى ... وعندما اتخذت جوليا قارباً تتنزه فيه ، فكرا معاً في ذلك الماضي الجميل « ... كان صوت المجاديف المتزن ، يثيرني لأحلم . وكانت صدحات دجاج الحقول المرحة ، تذكرني بنعميات عمر مضى ، فتحزنني بدلاً من أن تفرحني . وشعرت ، رويداً رويداً ، بازدياد الغم الذي كنت به مثقلاً . فلا صفاء السماء ، ولا طراوة الهواء ، ولا شعاعات القمر اللطيفة ، ولا رعشات الماء الفضية حولنا ، حتى ، ولا وجود هذه المخلوقة العزيزة ، لم يستطع أن يطرد عن قلبي ألف فكرة موئلة ... »

وينهي روسو روايته بموت جوليا ، بعد أن أوصت

سان برو بزواج كلير ابنة عمها ، ولكنه أبى . وعاش مع كلير ينشئان أولادها ، وفاء لها

* * *

تلك خلاصة موجزة عن هيلوئيز الجديدة . ولقد أوتيت من الانتشار ما لم يقدَّر لغيرها . وقرأها النساء والشبان والشيخان ، بحماسة ولذة . وظلت طوال القرن الثامن عشر ، رواية الجمهور . لقد علَّم روسو بها الحب نابليون ، وأخذ عنه غوته وستاندال أيضاً . وعلم بها الناس الفضيلة ، فكان قائداً أخلاقياً ، ثم علمهم بها حب الطبيعه فأحبوها ، وكان أباً وأستاذاً للابتداعيين الذين أتوا بعده .

ستاندال والحب

STENDHAL : DE L'AMOUR

إذا جرى قلم ستاندال في الحب، فأعجبْ به من متحدث، وأكرِمْ به من خبير. لقد بلى الحب وعرف ذُواقه، فوصفه وعرّفه، وتساءل كيف ينبغي أن يكون الرجل مع النساء؟ أيكون كدون جوان، أم كڤرتر الهيمان؟ أيصيد ويحارب، أم يعشق ويدنف؟ لقد كان ستاندال يُعجب بدون جوان لأنه رمز الشجاعة والمغامرة والنشاط، ولأنه محتال هاديء ممعن في اللهو والاستهزاء.

والحق أن الناس جميعاً، يعجبون بمن كان على شاكلة دون جوان. ولكنهم يُعرِضون به ويثلبونه محاسنه. في حين أن العشاق المتيمين، أشباه ڤرتر المسكين، يشفهم السقم، ويضنيهم العذاب، ولكنك تراهم سعداء. سعادتهم في الخيال. إنهم يبنون القصور الشامخات، فيزرکشونها بأحلى التهاويل، فهي أبداً مشرقة بسنا باهر من تزويق الأحلام وزخرفة الهوى؛ فيعيشون ويحلمون، لأن الحب

على منهاج فرتر يعدّ الروح لفهم كل فن رفيع، ولإحساس كل شعور لطيف .

إن دون جوان يرى النساء عدوات لدودات . فالحب في عينيه حرب ونضال . هو يبرع في المغامرات ويستهدف الانتصارات . أما أتباع فرتر فأولئك هم الهانئون بالزفرات والعبرات .

إن دون جوان يختصر الحب ، ويجعله أمراً هيناً ينتهي بالنصر . فهو ما يفتأ يفكر كالقائد العظيم ، في نجاح أعماله ، ومهارة هجومه ، وبلوغه المجد ! أما أنصار فرتر فالحب عندهم طريق طويل ، يجتازونه سعداء بما يشعرون به ويحسون ، وبما يلاقون ويذوقون . سعداء بالعاطفة والحنين ، والوجد والأنين ، والسقم والضنى ، والبكاء والشكوى ، مرتقبين الفرحة الكبرى ؛ سعداء بأنهم أحبوا . وقديماً قال لاروشفوكو « إن لذة الحب ، هي أن تحب ! » صحيح هنيو .

إن نعيم دون جوان لذّة جنسية ، قشعريرة تدب في الجسم لحظات ، ثم زهو و كبرياء : لقد انتصر ! والحب على طريقته يحاكي الميل إلى الصيد . هو ميل للنشاط . أما الحب على طريقة ڤرتر فهو هدف نبيل في الحياة يلمس بسحره الأشياء ، فترقرق فيها الطرافة والحياة ، والرونق والرواء ، إنه حب لا يعرف الملل ، لأنه يهزّ . « والحب الذي يهزّ ، لا يبعث الملل في النفس » .

لقد كان ستاندال يترجّح طوال حياته بين مذهب ڤرتر ، ومنهج دون جوان . كان بطبعه قريباً من ڤرتر . ولكنه نهج منهج دون جوان بفضل صديقه « ميريمه » Mérimée ولكن دون جوان متكبر مزهو . وستاندال لا يعرف التكبر ولا الزهو . وكان رقيق النفس لطيف الطبع . و كان حلمه في الحب ، أن يتأمل ويعجب ، وأن يجد امرأة ليست كواحدة من النساء !

وصف ستاندال الحب بما لم يصفه به أحد . وصف

فعاليته ونموّه، وابتداءه وانتهاءه، وصف ذي تجربة وخبرة.
كتب مرة يقول «لقد كان الحب دائماً أعظم الأعمال طراً لديّ، بل كان شغلي الشاغل الوحيد».

خص ستاندال بالحب كتابه «de l'Amour» وصوره في رواياته الظراف، كأرمانس «Armance» والأحمر والأسود Le Rouge et le Noir. وغيرهما. ومامذ كراته Son journal أيضاً سوى كتاب للحب والهوى.

تُرى كيف يكون ميلادُ الحب ونموه؟

لقد وصف ذلك في فصل عقده عن «التبلور» Cristallisation. وهو من أمتع الفصول في كتابه عن الحب، يقول فيه إن أوّل الحب الإعجاب. ترى الفتاة فيعلق طرفك لحظة بها، وتعجب بخلابتها وحسنها. ثم يرف حولك حلم زاهر، وتقول لنفسك: «ما ألذها لذةً أن تقبلني قبلة، أو أقبلها قبلة. ما ألطفها، ما أجملها!» ثم يداعبك الأمل، فتأمل أن تراها، وأن تراك.

وتغدو مترقباً ما أملّت . وعندئذ يولد الحب .

فاذ اولد الحب ، بدأ التبلور الأول . فيشعر المحب بلذة ما تسامیها لذة ، وهو يخلع على محبوبته الجمال والكمال . وتصبح شغله الشاغل . يتمثلها ليله ونهاره ، ويتخيلها في كل مكان : في الطريق ، وفي المتجر ، وفي المكتب ، وفي الفراش . يزينها خياله ، ويزوّقها هواه . يقول ستاندال : فيحدث بها ، ما يحدث بغصن شجرة كالح أجرد سليب إذا قذف إلى مناجم الملح في سالزبورغ ، فإذا أخرجوه بعد شهور ، ألفوه غصناً كأنه مزهر ، يتلألأ ويتألق . وقد رصعته بلورات لماّعة من الملح ، كأنها جوهر من الجوهر . فإذا أبصره مبصر ، لم يدر في خلده أن هذا الغصن كان أمس سليباً أجرد . فما يسميه ستاندال بالتبلور هو هذا ، أعني تزيين الحبيب حبيبه ، وخلع المحاسن عليه ، حتى يصبح كذلك الغصن . فإذا تم التبلور ، كانت الحبيبة في عيني محبها ، أجمل مخلوقة في الدنيا ؛ بل هي الجمال كله ،

ليست من البشر ، ولا كواحدة من النساء ... هي ملك كريم .

ثم لا يسمع المحب بشيء لذ ، إلا تمنى أن يلذه مع من يحب ، ولا خطر بباله سعادة إلا هفا قلبه إليها لأجل التي يحب .

والتبلور أسرع نمواً عند المرأة منه عند الرجل . وذلك راجع الى رهافة حسها ، ورقة قلبها . تراها تطرز وتفكر ، وتخيط وتحلم وتغني وتذكر . وفي هذا كله تخلع على فتاها أبهى الصفات التي تود أن تكون فيه . أما هو ، فقد يسلى ساعات ، وقد ينسى ساعات ، وقد يكتم الأمر فلا يدع لبدوّه سبيلاً .

ومادامت صور المحب تتجدّد في نفس الحبيب وتتعدّد ، فالحب ثابت لا يزول ، على أن العاشق يشعر بعد هذا بقلق و اضطراب ، فلم يضطرب ؟

لقد أغراه الحب وضحك له الأمل . فيلجّ في الأماني

ويودّ لو كانت لذاذات الدُنى كلها طوع يديه لينعم بها مع حبيبه . ولكن اللذائذ لاتوآتيه ، والسعادة لا تأتيه .

ثم يعتريه الشك . ويقول لنفسه « إنها جميلة ! وليس في الدنيا أجمل منها جمالاً ولا أحلى حلاوة ، وإنها لتحبني ، ولكن كيف السبيل إلى عرفان آية حبها ؟ »

فاذا كان الوصال ، فالتبلور يذوب . وإذا كان الهجران ، فالتبلور يعود ويزيد . وكلما رأى مخلوقاً ينعم نعيماً ، أو يسعد سعادة ، تحسر وقال : « أوّاه ! لن أذوق هذا النعيم ، ولن أتمتع بهذه السعادة ! »

* * *

ومن الطريف أن نقايس بين رأي ستاندال ، ورأي برناردشو في موقف المرأة والرجل من الحب . فهما على طرفي نقيض . فيعتقد ستاندال أن الرجل في الحب لجوج يهاجم ، وأن المرأة عزوف تدافع . وأنه يطلب ، في حين

ترفض . وأنه يكون يقظاً نشيطاً ، وتكون هادئة جزوعاً . أما برناردشو فيرى أن المرأة تتساءل دائماً « كيف السبيل إلى إغرائه ؟ » على حين يقول الرجل « وكيف أُنقذ حريتي من الأسر ؟ » أما الإرضاء ، فهو عند ستاندال ، من محاولات الرجل لأنه يقول « أأستطيع أن أنال رضاها ؟ » لأن المرأة لا ترضى سريعاً ، ولا تصدق المحب ، فهي تتساءل أبداً « ألا يلهو بقوله : أحبك ؟ أثابت حبه مقيم ، أم زائل متحوّل ؟ » وسر هذا أن النساء ضعيفات القلوب يجزعن ويخفن . ولهذا كان نموّ الحب ، عندهن هادئاً بطيئاً .

* * *

تلك طرف ستاندال عن الحب : وما أزعم أني وفيته حقه . ولكني أنصح بقراءة كتابه De l'Amour . فإن فيه رضى الشعور ، وغذاء القلب . وفيه طرافة وظرافة .

فلقد بلغ في تحليله الحب ، هذا التحليل العميق ، مالم يبلغه أحد ممن سبقه أو لحقه .

لقد كانت الحياة في عينيه نساء وأنغاماً وأسماراً . فجدير بمن كان هذا شأنه ، أن تعلمه الغواني كيف يكون الحب ، و كيف يصبح أمير الحب !

كانت الآنسة كابلي Mlle Kably، وهي ممثلة رآها في مسرح غرونوبل، أول فتاة خفق لها قلبه . وكان حبه يومئذ حب طالب غض الاهاب . كان في السادسة عشرة من عمره . صادفها ذات يوم ، فسحرته ، فأحبها وكان اضطرام عواطفه شديداً ، جعله لا يجرؤ على أن يترصدها في الطريق أو يرقبها في الشارع ، لشدة سلطانها عليه . حتى أنه صادفها مرة ، وكانت مرة وحيدة ، فانقلب إلى غرفته مريضاً . والحق أن هذا الحب كان عنيفاً متأججاً . وكان ستاندال يتجلد ، ويذهب إلى المسرح ، فيختفي وراء الناس ، ليسارقها نظره . وكان يصفق بكفيه لها ، تصفيقاً فيه عنف حبه وشدته . حقاً إنه حب عجيب . لقد أسرت هذه الفاتنة ، قلب هذا الفتى ، وهي لا تعرفه ولم تسمع قط باسمه . ولكن هذا الحب ،

ما كان غير فورة عاطفية خمد لهيبها ، مذ تركت الآنسة كابلي غرونوبل . فقد تحوّل عنها ، إلى أخت أحد أصدقائه ، « فيكتورين بيجليون Victorine Bigillion » فأحبها أيضاً . ثم رحل إلى باريس ، وقصد ميلان . وفي ميلان ألفى نفسه عاشقاً امرأة ذات جمال وصباحة ، كان لها الصيت الذائع بالحسن والسحر واللطف ، هي « انجيلا بيتراغروا Angela Bietragrua » ولكنه لم يجرؤ أيضاً أن يعلمها حبّه . فلما عاد إلى باريس صادف ممثلة أخرى ، تعرف بالآنسة لوآزون Louason . وكان اسمها الحق « ميلاني » فعاشرها وصاحبها ، وكتب عنها في مذكراته روائع حلوة

« لقد ذهبت إلى ميلاني وقد مسني اضطراب خفيف ، فنفخت في النار ، وكانت هذه العناية التي تبشر بالألفة والأنس تأخذ بمجامع قلبي . ولقد ظللنا معاً حتى الساعة الثانية عشرة ، وكنت سعيداً جداً . ووددت لو كانت

سعيدة مثلي أنا . لقد كانت مخلوقة علوية وهي تقص عليّ أقصوصاتها . وكنت جالساً بجانبها أنظر إليها مواجهة ، لا أدع لمحة من ملامحها تفلت مني ، واضعاً كفيها في كفيّ . ولقد أحست جيداً أن روحها الحنون تحلم .. إن فرح هذه النفس الحساسة ، ونشوتها ، اللذين أظهرتهما إذ رأتني ؛ خيلا إليّ أنهما تدلان على حبها إياي .

غير أني ، جعلتها تبرم بي قليلاً ، آخرة مرة . فقد قلت لها : « لنختر علامة ، تشيرين بها إليّ ، عندما تشعرين بملالة مني . » فأجابت بلهجة الرضى والقبول « آه ! نعم نعم ! إن هذه العلامة هي هذا السؤال : أفي الأوبرا حفلة رقص ؟ » ..

وبعد أيام ..

« لقد خرجت من عند لوآزون ، أعتقد أني لم أك قط أبرع ، ولا أشد قياماً بما ينبغي عليّ ، مثل ذلك اليوم . وكنت أرتدي صداراً ، وسراويل قصيراً من الحرير ،

وجوارب سوداً . وفوق ذلك بذلة برونزية اللون معلّمة . وعقدة أحكم وضعها ، وقبعة أنيقة . وأعتقد أنّ هيئتي ، لم تمح قط دمامتي يوماً ، كما محتها يومئذ . كانت روحي كلها تبدو . لقد أخفت جسمي ، وكنت أبدو جميلاً جداً ..»

فما ألطف هذه القناعة الساذجة ، التي يقنع بها محب بليد متواضع . إنها لتذكر بروسو عندما كانت يطري نفسه .

ونجح ستاندال في كسب ميلاني . وفي سنة ١٨٠٥ تبعها إلى مارسيليا . فلما عاد إلى باريس علقه هوى جديد . فقد أحب مدام دارو Mme Daru ثم صدف عنها ، راحلاً إلى ميلان . فوجد انجيلا التي أحبها ، منذ بعيد ، حباً صامتاً ، وقد تزوّجت . فاتصل بها ، وأفضى إليها أنه أحبها ، وأن حبه ظل في أعماق قلبه ، فذكرت بعد لأي ، هذا الفتى المتدفق فرحاً وغبطة ، الذي كانت تسمية لدمامته

« الصيني »، وسألته بدهشة : « ولماذا لم تخبرني أنك تحبني ؟ » . فتلعثم ستاندال، وطغى عليه الحياء، فصمت.

وبقيت انجيلا الميلانية، أو بالأحرى، انجيلا التي أبدعها خياله، مثلاً أعلى للخليلة . سمراء، فاتنة، شهوى. ويظهر أنه مذ أحبها أول مرة سنة ١٨٠٠، إلى أن رآها في المرة الثانية سنة ١٨١١، ظل يفكر فيها . فتبلورت صورتها في نفسه، ورآها طيف سعادة ملوءها العذوبة والرقة . ولكن سرعان ما عرف أنها قد خدعته . وأن ما تخيله، يخالف ما رآه . فصرم حبلها، وصدف عنها . فأدركه هوى جديد، وأحب ماتيلد دامبوفسكا Mathilde Dembovska . ثم تركها .

مسكين ستاندال ! لقد رأى عشر نساء أو أكثر، أحبهن، وشغف بهن، ولكن واحدة او ثنتين أحبينه . لقد كان يفتش عن النفوس الجميلة، وكان يظن أنه وجدها،

والحقيقة أنه أوجدها ، وصوّرها ، واستمد من النساء اللواتي عرفهن ، وقطّع حياته بعبثهن ، مواد لرواياته الحلوة

فلننظر الان كيف صور في رواياته هؤلاء النساء ، وكيف أظهر الحب ، بسحره ولطفه ، للناس .

— ٣ —

الاحمر والاسود

LE ROUGE ET LE NOIR

يقول موروا : إن ستاندال ، كان يبدع ابطاله ليُرضي نفسه وهواه ، قبل كل شيء . فصور ضربين من النساء . ضرب كان يود أن يجده ويحبه ، تتصف المرأة فيه بالرقة والخفر وبفوران الحب ، وشدة التقى ، وكتمان الهوى . ويضع ستاندال التقوى في المرأة المحبوبة ليجعل نصر الحب ، في التغلب على هذه التقوى . ثم يجعل المحبوبة كاملة ، ولكنها مع ذلك ، تضعف فيتغلب عليها الهوى . وتلكم صور مدام دُربنال Mme de Renal في رواية « الاحمر والاسود » وكليليا كونتي Clélia Conti في « راهبة بارمة La chartereuse de Parme » . أما الضرب الثاني ، ففيه

المرأة التي كان يكونها لو خلق امرأة. كما تبلد في « الاحمر والاسود » وسانسوفورينا، في « راهبة بارمة » ، ولاميل Lamiel ، في الرواية التي تحمل هذا الاسم .

وقاريء الاحمر والاسود ، يري البراعة التي صور بها البطلان . ففي زمن عودة الملكية ، يعهد الى جوليان صوريل Julian sorel بتأديب أولاد السيد دورينال M. de Rênal . وكان جوليان قروياً ، رهيف الحس ، ثابت الجنان ، شجاعاً ، يتدفق حماسة وعصبية لنابليون ، وحقداً على اعدائه ؛ وكان السيد دورينال نبيلا من صحب ولي العهد ، تزوج امرأة اوتيت رقة بالغة ، وحساسة مفرطة فابتهجت عندما علمت أن جوليان قروي حقير ، وأنه غض الاهاب ، يخيل أنه فتاه خفرة متنكرة بلباس الرجال ، وكان جوليان يمقتها ، لأنها زوج غني كبير ، ولأنها كانت صامتة ، كأن في صمتها احتقاراً لمن تراه

وكان السيد دورينال يرعى زوجته ويخفض لها جناحه

من اللطف ، ويرى أن من الطبيعي أن تكون مخلصة له ، أما هي فكانت لا تحبه ، وكانت تعتقد أن ليس في الرجال واحد لا يشبه زوجها ، وأنهم جميعاً غلاظ ، جفاة لا يرقون إلا عندما يلمحون المطامع أو تمد اليهم أعناق الاموال .

ولو أنها كانت من باريس ، وكانت قرأت الروايات لأدركت إذ رأت جوليان ، أن في بقاء هذا الفتى معها خطراً عليها ، ولكن فيم الخوف ؟ إنها لم تبلُ الحب قط ، ثم هي لا تعرفه ، وهي بجهلها هذا تسعد بالقرب من جوليان ثم فطنت لميلها اليه عندما ودّت خادمها لو تتزوج جوليان عندئذ غضبت مدام دُرينال ، وساءلت نفسها أأكن حباً لجوليان ؟ إنها في آن معاً ، سعيدة قلقة . كل شيء تراه ، يخيل اليها أنه جديد . . حتى البراري . وأخذ إعجابها بجوليان يزداد . . وبدأ التبلور ، وحدث ذات مساء أن لمس يد مدام دُرينال ، والظلام منشور في الحديقة فافلتت اليدُ منه بسرعة ، وفكر جوليان أن من واجبه

أن يبلغ من مدام دُرينال مبلغاً ، لا تفلت معه يدها منه اذا لمسها . وأقبل إلى الحديقة في اليوم الثاني وكأنه مقبل ليقاتل عدواً . . وما كاد يعبس الليل حتى امسك يدها ، فافلتت منه ، ولكنه ، قبض عليها مرة ثانية ، وهو لا يدري ما يفعل .

وجهدت أن تنزعها منه ، ولكن عبثاً ، وظلت يدها بين كفيه .

وغمر السرور نفس جوليان . لقد شعر أنه قد ظفر ، وأن عذاباً موئلماً قد تولى عنه . أما هي ، فقد كانت ، ويداها في كفي جوليان ، تلذ وتتمتع ؛ لا تفكر في شيء . لقد خيل اليها أن شغفها به شيء لا عجب فيه ، ولذلك فقد حلي لها أن تدع يديها ، وأن تلذ . حتى أنها كانت ، إذا لجأها أمر عارض إلى سحب يديها ، عادت فأرجعتهما اليه ، بيسر

لقد تساءلت مدام دُرينال «ماذا أصابني؟ أأحببت أم

أني سأحب؟ وأنا امرأة ذات بعل ! أأصبح عاشقة؟ لكنني ما شعرت قط ، لزوجي بمثل ما اشعر به نحو جوليان الذي أفكر فيه دائماً . . »

لقد شعرتْ بالسعادة . أحست بنور يغمر روحها ، فتذوق به ألواناً من الاحاسيس اللطيفة العذبة ، فالآن كل شيء حلو ، لذ ، ممتع ، في عينيها . وهي مطمئنة ، راضية ، لا تفكر في شيء ، ولا يخطر المستقبل في ذهنها .

ورأى جوليان حبها إياه ، . ففرض عليها ما يشاء . .

« سيدتي ، هذه الليلة ، في الساعة الثانية ، سآتي إلى مخدعك ! » وعندما تدق الساعة الثانية ، كان يشعر أن عليه واجباً يجب أداؤه ، فيهب . . ويسترق الخطو اليها .

فاذا ترك مخدعها ، شعر أنه قد شفى نفسه ، وأن ليس له قط ما يرغب فيه ، اما مدام دُرينال ، فسعيدة ؛ بلغت سعادتها مبلغاً لا يوصف ، ولا يصدق إذا وصف ، وكانت حياتها النعيم والجحيم ، جحيماً عندما يغيب

جوليان ، ونعيماً إذا كانت بين يديه .

وتيقظ ضميرها ، ورأت ما أقدمت عليه ، ولكنها لم تأسف على ما بدر منها ؛ لقد قالت له : « أنا في عذاب شديد ، عذاب لا يطاق احتماله ، إنك لغض العود ؛ ولقد اذعنت لسلطان خلاباتي ، إن الله قادر على ان يعفو عنك اما أنا ، قد أُسلمت للعذاب . إني أخاف ؛ من ذا الذي لا يفرق أمام رؤية الجحيم ، ولكني ، في الحقيقة ، لا ألوم نفسي ، وسأخطئ خطيئتي مرة ثانية ، إذا كان لي أن ارتكبها »

ويلغط الخدم بما يلمحون ويسمعون ، ويكتب أعداء السيد رينال ، الرسائل المغفلات ، ويغمزون منه بها ، وتعلم مدام دُرينال ، فتحفظ جأشها وتظل حاضرة الذهن قوية القلب ، تذود عن شرفها ، وتضمن الطمأنينة لحبيبها وليس أعجب من هذه اليقظة عند النساء عندما يحببن ويعلمن أن أمرهن قد فضح ، حتى ليخيل إلى من يراهن ، أنهن

بريئات بل نقيات . وقد لاحظ بيرون هذه اليقظة من قبل .

ويخاف جوليان على نفسه، وبدهش لمرأى مدام دُرينال، ويعجبه سلوكها، وتظاهرها بالصرامة والتقوى، ويسألها زورة واحدة أخرى، فلا تجيبه .

وضاق السيد دُرينال بجوليان ذرعاً، واضطره أن يرحل عن منزله . فرحل، تاركا مدام دُرينال، قاصداً باريس

***

وفي باريس يعين أمين سر للمركيز دلامول Marquis de la Mole ويعرف ضحية جديدة، هي ابنة المركيز، ماتيلد دُلامول Matilde de laMole وكانت ماتيلد ذات جمال فاتن، شقراء خلابة، ركبت تركيباً بديعاً . ففي المرة الاولى التي رآها جوليان فيها، لم تعجبه ورغم ذلك، اعترف أنه ما رأى قط عينين أحلى من عينيها ولكنه لمح فيهما ما ينبيء عن تبلد وميل إلى الكسل، ولقد كانت ماتيلد عجيبة، نشئت نشأة دينية، ولكنها

رغم ذلك تقرأ ما يكتبه فولتير الملحد، وكانت تحتقر كل من يحيط بها من الرجال، وترى أنها أرفع منهم ذكاء وعلما، إلا هذا الفتى الجديد .. جوليان، فكأنه ليس كأولئك ..

وظلت ماتيلد بغيضة إلى جوليان، وظل بادي بدء يقول: ما ابغضها في قلبي!

وعبثاً كانت ماتيلد تشيد بمحاسن روسو لارضاء جوليان، فقد كان يظل صامتاً ينظر نظرات حادة. لقد كان من عادتها هي أن تنظر إلى الناس هذه النظرات، فكان عجبها شديداً عندما لاقت من جوليان ذلك، وشعرت أنها حقير في عينيه، وأنها لا تستطيع أن تحتقره ثم انها لا تقوى على نظرته، فهي تخاف منها.

وكان جوليان يذكر مدام دُرينال كلما نظر إلى ماتيلد: يذكر سحرها وسذاجتها، فيأسف على ما ضاع منه؛ فقد كانت تلقاه بالوجه الضاحك، والبشر الدائم، أما

اليوم فلا يرى هنا غير زهو وعبوس و كبرياء .

ولكن هذا الاعراض عنها ، كان في الحقيقة مبدأ « التبلور » عنده . فقد كان يفكر فيها ، وفيما يراه منها ، ويدع عقله الباطن يزيّنها ، حتى أتى يوم صاح فيه :

« اللهم ! ما أجملها .. ! شد ماتلذني عيناها النجلاوان من قرب وهما تنظران اليّ . »

وتيقظ الهوى في نفسه ، وتساءل « أتحبني؟ » وخامره الشك ، حتى بثته حبها ذات يوم ، فاهتز وطرب ، وحق لهذا القروي أن يهتز ، إذ رأى فتاة نبيلة تحبه .

وتملكت ماتيلد عاطفة حب مشبوب ، وهوى محرق لقد كانت ذات نفس سامية ، لو لا هذه الكبرياء التي لوثتها . وما لها لا تحب ، وهي واحدة من نساء اسرة لامول المنحدرة من لامول الا كبر الذي عاش في القرن السادس عشر . إنها امرأة من نساء عصر النهضة ، إن لم تكنها فانها لتود أن تكونها . ولقد كانت تزين لنفسها أن

جوليان ذو شمائل رفيعة ، فكانت تضرب له موعداً يأتيها فيه ، ليلا ، إلى غرفتها . فكان يسمو إليها ، إذا نام أهلها على حبل ربط بنافذتها ، لا يحفل الخطر ولا يأبه بالمركيز ولا بخدمه ، فالحب يدفع المحب إلى الموت ، وأبطال ستاندال لا يفرقون ولا يرعبون .

ويتبادلان الحب

ولكن ما أكثر اضطراب العواطف في الحب ، فاليوم تفور وتطغى كلها وَلَه وجوى ، وغداً تسكن وتهدأ ، يمسها فتور . او تستحيل بعض الاحايين ، بغضاً : وهكذا ، انقلب حب ماتيلد بغضاً . ثم يعود الحب كأشد ما يكون ، وينتصر الشباب ، وتذعن الكبرياء ، وهنا تظهر السعادة على رأى ستاندال . ويثور الهوى في جسمها ، فتقص شعرها ، من أجله ، وتدع حبها يظهر قويا جياشاً ، فيعلم به من يحيط بها ، وها لم يبق على المركيز إلا أن يقبل بزواجهما . فتسول له نفسه أن يسأل عن جوليان آل

دُرينال . فتسرع مدام دُرينال إلى الكاهن تعترف له بما كان بينهما ، وتسأله ماذا تجيب . فيأمر أن تحكي ماوقع . ويعلم المركيز بما كان ، فيحول دون الزواج . ويغضب جوليان ، فيثور ويحنق ، ثم يقصد إلى بلد السيدة دُرينال ويغشى الكنيسة ، حيث كانت تصلي ، ويطلق عليها رصاصة ، ليقتلها ، فيمسك المصلون به ، ويودع السجن

والحقيقة أن مدام درينال ، لم تكتب للمركيز بما كتبت إلا لأنها تحب جوليان ، وها هي ذي تأتي إليه في السجن لتزوره ، ويشعر هو ، أنه لم يحب أحداً كما أحبها ، فيندم على ما فعل ، ويود لو أوتي الجأش الثابت ، والصبر الطويل . ثم يقطع رأسه . . ليموت .

وهنا تظهر حقيقة الحبين . أما ماتيلد ، فتصبر وتتصابر وتؤتي القدرة على النظر إلى رأسه الذبيح ، وأن تقبل جبينه أيضاً . أما مدام دُرينال ، فتحزن وتجزع ، ثم تموت بعد أيام ثلاثة .

فهاتان صورتان ، فأيهما تفضل ؟ أما ستاندال ، فكان يفضل مدام درينال على ماتيلد . لقد كان يطرب لطباع ماتيلد ولكنه لا يحبه ، فان الكبرياء في الحب تفسده في أغلب الاحايين ، وتدع الخصام يثور بين المحبين ، من أجل أشاوتافهات ، لا شأن لها .

ولكن ستاندال ، يثني على شجاعة ماتيلد ، وشجاعة مدام دُرينال ، هذه الشجاعة التي تفوق شجاعة الرجال والتي يخلقها الحب القوي ، فيسهل بها الصعب ، ويذلل العسير ، وتذوق بها المرأة العاشقة لذة وسعادة لا تعرفها إذا فقدتها .

فلوبير

ومدام بوفاري

MADAME BOVARY

كان فلوبير ابن جرّاح شهير من « روان » ، فنشيء في أحد المشافي، وأبصر أول ما أبصر ، جراحات المرضى، ودماء الجرحى ، وجثث الموتى .

و كان مدرج « أوتيل ديو » يشرف على بستانه ، فكان يتسلق مع اخوته على عريش الدوالي ، وينظرون بشغف ، وهم متعلقين بين أغصان الكرمة ، الجثث المعروضة .

وظل فلوبير متأثراً بهذا المشهد الذي رآه وهو في غضوضة عمره .ودفعه إلى تمويه أدبه بصبغة من الحزن والأسى . ولقد كتب إلى خليلته « لويز كوله » بعد سنين . « إن تأمل امرأة عارية ، يجعلني أفكر بهيكلها العظمي ... ! » وهذا عجب . لأن الجسم العاري ، الذي يقطر إغراء ولذة ، ويتحير فيه الحسن والجمال ،

لا يذكّره غير عظام ناتئات يطلّ من ورائها الموت .

على أن هذا الكاتب ، رغم هذا ، كان ينتشي للجمال ، بل كان يعبده ولا يعيش إلا له . كان يعتقد أن الجمال قد هيمن على العالم في العهد المجوسي ، وفي بلاد الشرق ، ولهذا كتب « سلاّمبو » . فلما أتت النصرانية ، وأدت الجمال ، في سبيل فكرة الخير . ورغم ذلك ، ظلّ الجمال باقياً . وإن الانسان ليستطيع أن يتمتع به ، بايمان صوفي عميق . أما الرومانتيكية فليست جمالاً ، وما هي غير حلم بشع قبيح « يصفعه الواقع ويرمي به . . . » وتلك غاية « مدام بوڤاري » .

وكان يحب نداءآت الروح ، ووثباتها الفجائية ، والآهات العميقات ، وخواطر القلب .

ولقد أعجب بهوغو ، ورابله ، وشكسبير ، وبيرون ، وخلبته اعترافات روسو . على أن هوغو كان أشدهم تأثيراً فيه .

وكان يعجب برواية فوست ، ويقرأها على ضفاف السين اليسرى ، في روان ، بين الشجر العارش ، فيهتز لها ويطرب .

وإذا أثر فيه اوتيل ديو ، وأثر فيه هوغو ، وأطربه غوته ، فقد أثرت فيه نساء أهجن نفسه حيناً من الزمن . لقد لهى بهن ، فصعّدن من روحه عطراً ، وتركن جراحاً ، ودفعنه إلى كتابة رائعات خالدات .

لقد كانت لهفاته على الحب ، في ريعان شبابه ، شديدة . صادف وهو في الخامسة عشرة من عمره ، في « تروفيل » ماري شليزنجر Marie Schlesinger ، فأوحت إليه ذكرى حبها أن يصنع « مدام آرنو » Madame Arnoux ، المرأة الأولى في روايته « التربية العاطفية » L'Education Sentimentale وكان حبها إياه ، عذرياً . أما هو ، فقد كان يومئذ لا يستطيع أن يحب إلا المرأة التي تحنو عليه وتحميه . ولقد كان شديد الحياء . فدفع به هذا التلبد

إلى المرض . ومسّه مرض عصبي ، لا ندري كنهه ، أدّى به إلى العزلة عن الناس ، زمناً من حياته غير قصير .

ثم عرف خليلة أخرى ، كانت أشد أثراً فيه من غيرها تلك هي « لويز كوله » Louise Colet فاتنة الكتاب والشعراء ، التي أحبها اكابر الأدباء ، في ذلك العصر . والحق أنها كانت امرأة عجباً ، بارعة الجمال خلوب الحسن ، وكانت رقيق العواطف تنظم الشعر ، وتسخر نعومة شعرها الأشقر وسحر عينيها الحلوتين ، وصفاء لونها الوردي ، لتنشر اشعارها . ولقد كانت خليلة كوزان وهوغو ، ودفيني ، وموسه ، واستطاعت أن تستغل ود هؤلاء إياها لتنال جائزة الشعر ، التي كان اولئك الشعراء يهبونها لمن أجاد في النظم ، أربع مرات

صادف فلوبير هذه المرأة سنة ١٨٤٦ أول مرة ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، ثم أضحت بعد شهرين من لقائها الاول ربيطته ، فأحبها حباً عنيفاً قوياً ، خالط

لحمه ودمه ، وأحبته هي أيضاً ، ولكن أغضبته سريعاً ، لقد كان يحسب أنه سيجدها امرأة ذات خلق لا يشبه خلق النساء ، ولكنه خاب حسبانه .

« كنتُ أحسب أني سأجدفيك معنى أكثر شمولا للحياة .. » بهذا ناداها بعدئذ ، وقد شعر بالخيبة .

والحق أنها خيبة مؤلمة ، خيبة كل عاشق يقترب من حبيبته ، فلا يجد فيها ما كان يأمله ، صدمة الخيال المبدع بالواقع المشوه البشع

أين رسائله الأولى اليها .. ؟

« قبل اثنتى عشرة ساعة ، كنا ما نزال معاً . ما أطول مدة افتراقنا ! الليلة دافئة رقيقة ، اني أستمع إلى حفيف شجرة السوسن الامير كي تحت نافذتي .. لقد فرغت من ترتيب كل ما أعطيتنيه ... إن رسالتيك في العتيدة ذات الوشي ، سأعيد قراءتها عندما أفرغ من رسالتي .. أنتِ المرأة الوحيد التي أحببت ... »

ولكن ، بعد هذه النجوى الناعمة ، وهذا الاعتراف الرقيق ، يأتي الهجر والقطيعة ..

والظاهر أن فلوبير كان ذا خلق شاذ ، فشأنه في حبه ، كشأنه في صداقته ، تجده جافي الطبع ، سريع الغضب ، غليظ القلب ، قادراً على إثارة ثورات عنيفات ولقد كانت لويز تتحدث بعد القطيعة ، عن ذاته الغريبة ، «المستمرة النمو في العزلة ..» وعن المخلوق الذي كان يريد أن يكون له عليها سلطان لا يقاوم .

وتهاجر الحبيبان ، فثارت لويز وغضب فلوبير . ولكن الحق أن لويز أوحت إليه عناصر أثر خالد ، عناصر تجدها في مدام بوفاري ، هذه القصة التي جاءته من حيث لا يشعر فقد علم فلوبير يوماً أن دلامار تلميذ أبيه ، وطبيب إحدى القرى ، تزوج فتاة اسمها دلفين ، فابغضته واحتقرته . وكانت طياشة مزهوة ، لا تعرف التدبير ولا الترتيب ، فساء نظام بيتها ، ولحقها العشاق إذ كانت

تسعى وراء لذتها ، ثم صدف عنها هؤلاء ، وتبعها الدائنون يطالبونها بالدين ، فتجرعت السم فماتت وخلّفت وراءها بنتاً لدلامار . فيأس هذا . وقد آلمه ما كان يسمع عن زوجه ، فقتل نفسه

فهذه القصة التي سمعها ، راقته كثيراً . وكان يرغب في تكبير الأشاوي الصغيرة ، وفي تأليف كتاب من لا شيء .. ، فأخذ القصة واستمد من حياتهمع لويزمادة يعرفها ، وبدأ يكتب مدام بوفاري .

مدام بوفاري

كان شارل بوفاري، طبيباً أرملاً في إحدى القرى. صادف يوماً « ايما Emma » ابنة الأب «روأو Rouault» المزارع النورماندي. فبهرته ببياض أظافرها اللامعة، وبجلاوة عينيها الدعجاوين، ذات الأهداب الطوال، التي تخيل، بظلالها، أن العينين سوداوان. وسحرته بنظرتها الفاتنة التي تنفذ إلى أعماق قلبك، وبعنقها الأجيد، ثم بوجنتيها اللتين استعار منهما الورد لونه.

وتمنى أن يتزوجها، وأراد الأب ما تمناه الطبيب. وهفا قلب ايما اليه؛ فلقد كانت ملت حياة البراري، ولعلها أن تجد في هذا الطبيب الأبّد، رغيبة أحلامها. هذه الاحلام التي صاحبتها، وسكنت إليها، فجعلتها وومانتيكية المشاعر.. ودفعتها أن تشتهي، أمراً، لم يفهمه أبوها

هو أن تُزَفّ إلى زوجها ، في منتصف الليل ، والظلام شامل ، على أضواء المشاعل . . .

وتزوجت إيما ، ولكن خاب ما أمّلت .

لقد حسبت قبل أن تتزوج ، أن الحب قد مسها ، وكانت تقرأ ما يورثه الحب من هناءة ولذة وسعادة ، فلما رأت أن السعادة التي كان ينبغي أن تنتج عن حبها وزواجها ، لم تأت ، أخذت تفكر أنها خدعت ، فطفقتْ تبحث ، لتعرف عما كان يُفهم ، على الدقة ، من كلمات : السعادة ، والحب ، والنشوة ، التي كانت تبدو لعينيها جميلة في الكتب .

مسكينة مدام بوفاري ! لقد تمثلت الحياة من الكتب ولم تدر ما فيها . « كانت قرأت بول وفرجيني ، وحلمت بكوخ من الخيزران ، وبالزنجي دومينيكو ، وبالكلب الامين . وحلمت على الاخص ، بالصداقة العذبة من أخ صغير ، يذهب ليفتش عن ثمار حمر ، من الشجرات الكبيرة . .

أو يجري ، وقدماه عاريتان ، فوق الرمال ، حاملا عش عصفور ..»

أما حياة البرية النورماندية ، حيث تعيش ، فما كانت توحي اليها شيئاً ، ولا يخفق لها قلبها ، وإنها لتعرف كل ما فيها ، فهنا الغنم ، وثغاؤها ، وما يصنع من ألبانها ، ثم المحاريث ، وما يفيدون منها . ولقد كانت اعتادت رؤية المناظر الهادئة ، فهي تهفو إلى مناظر صاخبة ، وكانت لاتحب البحر ، إلا لعواصفه ، ولاتحب الخضرة إلا إذا كانت بين الخرائب والطلول ، وكانت ذات طبع ، أشد رقة من فنان ...

فحياة الحب ، كما تصفها الروايات ؛ وحدها تهزها وتغريها . فكانت تطير في عوالم واجواء ، وتتخيل خيالات وتتمنى أمنيات .. تنظر إلى دنيا « ما فيها غير أهواء وعشاق ، ومحبوبات ونساء ، لاقين الجور والظلم والاضطهاد يغمى عليهن فى بيوت محاطة ببساتين منعزلات ، ورسل

بريد يقتلون في كل مرحلة .. وغابات مظلمات .. وقلوب هاجسات ، وعهود وعبرات ، ودموع وقبلات ، وزراق تجري في ضوء القمر ، وعنادل تغرد بين لفائف الشجر ، وسادة بواسل كالأسود ، إطاف كالحملان ، أعفة كما لا يكون .. »

وحتى المشاهد التي كانت تؤثرها ، هي مشاهد رومانتيكيه .. فمشهد يرى فيه وراء الدرابزون ، في روشن ، رجل برداء قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة تلبس ثوبا أبيض ، تحمل في زنّارها هميانا . أو صور نساء انجليزيات شعورهن الشقر مزرفنات ، ينظرن إليك بأعينهن النجل الصافيات ، من تحت قبعاتهن القش المدورات أو مشاهد شاحبات ، لمناطق غريبات رائعات ، ترينا شجر النخيل والصنوبر . يظهر فيها على اليمين أنهار وعلى الشمال آساد ، وتبدو مآذن تتريه في الأفق .. وفي الأمام خرائب الرومان ، ثم جمال جُثَّم ، وكل ذلك في غابة عذراء . »

فتلكم، كانت تخيلات إيما قبل الزواج .

فلما صادفت شارل ، وكان الرجل الفرد الذي استطاعت أن تلقاه بصداقة عند أبيها ، لأنه طبيب ، حسبت أنها ستلقى فيه ما تخيلته وما تمثلته من الصور والموسيقى والروايات ، واعتقدت أنها ستحيا معه الحياة التي كانت تلمحها في أحلامها ، وأنها ستذوق طعم الحب الساحر ، فلما تزوجها ، لم تستطع أن تؤمن أن هذا الهدوء الذي يحيط بها ، هو النعيم الذي تخيلته .

وبدلا من أن تقضي حياتها هادئة رافهة ، ظلت تفكر وتحلم ، فهي تحلم بالرحلات الطوال ، وبالنواقيس الهاتفات ، وبهدير الشلالات في الجبال ، وبالخلجان المفعم جوها بعبق شجر الليمون ، فلو أن شارل استطاع أن يرحل معها ما رغبت فيه من رحلات ، بل لو أنه قص عليها طرائف عنها فلربما سعدت بذلك . ولكن كيف تسعد أم كيف ترضى ، وإن حديث شارل لساذج لا تطرب إليه نفسها ، وهو لا

يعرف ما تأمل ، ليهدهد آمالها بكلمات عذاب تفتنها ، ولا يدرك عصفات هواها ليرويها، إذا عصفت،هواه . لقد ضيّع أحلامها وأي أحلام ضيّع !

وعندئذ قنعت إيمابلون من الحب؛ لون تمثلته من خلال الكتب والروايات . وهو حب مزركش فاتن .. هو ما حلم به فلوبير أيام صباه أيام تمنى الحظايا المصريات ليبل بهن ظمأ شهواته المحرقات .

ثم أدركها اليأس ، فنادت : «اللهم لِمَ تزوّجت ؟» وتساءلت أما كان في الامكان أن تلاقي رجلاً آخر غير هذا الذي رأته ؟ لقد تيقنت أن الرجال جميعاً ، لا يشبهون زوجها ، إنه غريب ! ثم قالت : أيوجد الحب حقاً ؟ وإذا وُجد فكيف يكون ؟ ما شكله وما طعمه وما وصفه ؟ فلتبحث إذن ، فلعلها تقع على ضالتها .

وأخذت تفتش حولها ؛ فصادفت شماساً اسمه ليون . وكان فتى هيبان ، فحدثته وحدثها

وسألته : أتنزهت في الضواحي ؟

فأجابها ، بأنه ذاهب ليشهد غروب الشمس .

فقالت إني لا أجد شيئاً أبهر من منظر الشمس الغاربة وخاصة على سيف البحر !

قال ليون : اوه ! إني لأعشق البحر !

فتابعت قولها : أفلا يخيل إليك أن الفكر يرفرف بحرية فوق هذه الفسحة التي لاحدلها ، والتي تسمو روحنا، بالتأمل بها ، فتوحي إلينا خواطر اللا نهاية والمثل الاعلى ...

قال ليون : وإن الأمر نفسه يكون في مناظر الجبال .

وشعر أن عاطفة فتوراً حلوة واحدة قد غشيتهما . ولذتهما عذوبة هذا الفتور ، فنعما ... لا يقلقهما ما غيب عنهما ...

وأعجبها ، وأضحى حبيبها . ولكن ترك يونفيل دون أن يجرؤ على حبها .

وأجالت الطرف حولها فأملت أن تجد في رجل اسمه

ردولف ، رغيبة نفسها . و كان رودولف ، رجلا نشيطاً قوياً ، ذا طبع جاف . وكان قد عرف نساء كثيرات . وقد خبر أخلاقهن . فرآها جميلة غضة ، وبدا له زوجها قد مسه طرف من بلاهة ، فعزم على أن يغزوه .. واغتنم يوماً فرصة وجوده بجانبها في عيد زراعي ، اقيم في يونفيل ، فكلمها ، والناس بتوزيع الجوائز لاهون . وهمس في أذنها مغازلات الحب الناعمة ، فانقادت له ، وبينا يظهر رودولف هنا واقعياً ، تظل مدام بوفاري خيالية ، تنقاد لعواطفها . ومع ذلك فقد أحبته

وانصرفت لنوال أفراح الحب ، وذواق حمى النعيم ، وغرقت في أمور رائعات ، فيها النشوة واللذة والهوى ، بينما كان هناك حلم يرف في خاطرها ويلح عليها ، وبغيب عنها ثم يعاودها ، هو أن ترحل رحلة طويلة مع رودولف وما زالت تسأله ذلك ، حتى أجابها . فرحلا قاصدين بلاداً جديدة .

وانطلقا يتمتعان ... ، فكانا يشاهدان أحياناً ، من قمم الجبال مدينة عظيمة ، تبدو قبابها ، وأهاضيبها ، وسفنها ، وغابات ليمونها ، وكنائسها ذات الرخام الابيض ، والنواقيس الحوامل أعشاش الكراكي ، فيبتهجان . وكانا يمشيان تارة على أقدامهما ، ينظران في الارض إلى باقات منثورة من الازاهير ... حتى وصلا ذات مساء الى قرية صيادين فحطا الرحال ليعيشا .. واتخذا فيها مسكناً واطئاً ، ذا سقف مبسوط تظله نخلة ، في صدر خليج ، على شاطئ البحر . وكانا يتنزهان في الجندول ويتأرجحان في الأرجوحة .

وتحاول ايما أن تجعل رودولف ، البطل الذي أحبته في بيرون . وكان رودولف يستطيع أن يقوم بما تريد إيما ، فلقد كان ذكياً ، وكان قد قرأ مغامرات العشاق وأحلام الشعراء قليلا ، ولكن الأمر الذي لا يستطيعه ، هو أن تتفق ثورات هواها مع ثورات هواه دائماً ، وأن يجد

قلبها إذا صرخ أو نادى ، قلباً يجيبه عما يريد ويشتهي وأن يحمل أثقال شدائد الحب طويلا . وظاهر أن حال رودولف هذا ، يشبه حال فلوبير نفسه مع لويز كوله . فعندما نرى إيما تبكي ، وتنادي رودولف قائلة :

« اوّاه! أنت الذي أحب ، وإني لأحبك حتى لا أستطيع أن أمضي عنك ، أوَتدري ذلك ؟ إني لأهفو إلى رؤيتك ، وغضبات الحب كلها تؤلمني ، فأسائل نفسي « أين هو ؟ لعله يتحدث إلى نساء أخريات ؟ ولعلهن يبسمن له ، فيقترب منهن ... » آه ، كلا أنت لا تفعل هذا ، أليس الأمر كذلك ، أنت لا تطرب لواحدة منهن . إن بينهن أجمل مني ، ولكني أكثر معرفة منهن بالحب . أنا مولاتك وخليلتك . أنت سيدي ومعبودي . إنك لطيب الخلق ، وإنك لذكي .. قوي .. »

أقول ، عندما نسمع هذا ، نعلم ما كانت عليه لويز ، ونقدر ما كان يكون جواب فلوبير عنه .

على أن رودولف لا تهزه هذه الكلمات ، فقد سمع مثلها من قبل ؛ حتى إيما نفسها ، ما هي في عينيه إلا خليلة تشابه الخليلات الباقيات . لأن الحب لا يبدو حلواً إلا في طرافته ، أيام يكون وليداً ، فاذا زالت الجدة ، ظهرت رتابة الحب ، ومافيها من عواطف و كلمات وألوان متشابهة .

ومل رودولف ، ولم ترَ . إنها تنزع في الخيال ، وتتيه في الأحلام ، وتفكر في تحقيق ماحامت به . وهذا أمر صعب إدراكه ، عسر نواله .

وفكر في القطيعة .

هنا تبدو أزمة شديدة في حياة إيما بوفاري . إنها ما تزال تصادف الخيبة والفشل كلما ركنت إلى الحلم . ولقد كانت تؤمل أن الحب على طريقة الاحلام وحدها موجود ولقد آمنت بذلك . فما لها تفشل من حين إلي حين ؟

وتبدأ الرواية بالانحدار ، كما يلاحظ فاكه ، بعد تصاعد العواطف الشديد . وتأخذ في وصف ما تؤول إليه حال امرأة عاشت في الأوهام ، وخافت من الواقع وابتعدت عنه . إنها الآن تحاول أن تسلو آلامها بما يهيج حواسها ، ويثير لذتها . ثم تذعن للواقع ، فتعود إلى زوجها وتجهد أن تحبه ، وأن تجعله رجلاً عظيماً ، ولكن عملية جراحية أجراها قضت على آماله ولو نجحت لكان نال السعادة . منذ ذلك اليوم يأست ايما . إلى من تلجأ ؟ ومن تحب ؟ ومن ذا الذي يعجبها في هذه القرية ؟ الصيدلاني هومه ؟ إنه ثرثار هذا مشهور . أم الكاهن بورنيزيان ، وهو ذو نفس لم تسمُ بعد !

وترحل إلى روان ، وتصادف ليون ، الشماس الشاب الذي فر من يونفيل ولم يجرؤ أن يبادلها الحب ، وتصبح هنا خليلته ، وتريد أن تلذ .. ولكنها خابت أيضاً ، إنها ما

زالت تؤمل أن تسمع أحلام الشعراء . وأن تتحدث عن الزهور والعطور ، والقمر والنجوم . . تحاول بذلك أن تؤرث حباً ضعيفاً لا حياة فيه .

وألمت ألماً شديداً . . روح وثابة تعلقت بالأحلام ، وفشل مستمر يثير الأحزان . وبين الواقع و الحلم مدى سحيق . لقد ودت العيش في أجواء الشعراء ، وهي ما تزال تعاند وتكابر . فلتسلم نفسها لمن يريد أن يلذ، لأنها بذلك تلذ . ولتنعم بكل شيء : بالعطور وبالزهور، وبالمآكل والخمور ، وبالملابس والستور ، ولتنفق الأموال بلا حساب ، لتثقل كاهلها بعد ذلك الديون . ولتبحث عن منقذ فلا تجد ، وليزد اليأس ، وتتحطم الأحلام !

الديون تزيد ، والدائنون يطالبون ، والأصحاب يفرون ؛ حتى رودولف ، حاولت أن تبقى عنده ، فأبعدها حتى إذا بلغ اليأس مبلغاً لم تطقه ، دخلت صيدلية «هومه»

فسرقت سمًا ، فتجرعته ، فماتت ميتة كلها عذاب موئلم شديد ؛ عذاب يناسب الجرائم الجسدية التي اقترفتها .

لقد أماتها الحب ، على رأي فلوبير . ولقد ماتت لأنها رفضت الحياة ، وأرادت ، على قول موروا ، أن تحيا في الأحلام .

تلك مأساة العذارى والنساء نستمع إليها كل يوم . حتى لكأن كل امرأة تحاكي مدام بوڤاري . ولكن وآ أسفاه ما أضيع عمرهن ! لأن طرافة الحلم تغري وحلاوة الخيال تغوي ، ولا يبقى بعد ذلك إلا الحقيقة المؤلمة والواقع الجاف .

انتهي القسم الأول من كتاب

نساء عاشقات

في أول ابريل ١٩٤٥

١٩٤٥ - ١٩٥٦

الفهرست

	ص
إلى القاريء	٧
الأميرة دُكليف	١١
هيلوئيز الجديدة	٢٤
ستاندال والحب	٤٣
الأحمر والأسود	٥٨
فلوبير والنساء	٧٣
مدام بوڤاري	٨٠
الفهرست	٩٥

مَنشورات اصدقاء الكتاب

سلسلة ثقافية

يحررها ذوو الأختصاص من

كبار الأدباء والعلماء والمؤلفين

صدر منها

١ — النابغة الذبياني — للأستاذ سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي

٢ — نساء عاشقات — للاستاذ صلاح الدين المنجد

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00065781

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

843.08
M96nA

General Library

843.08
M96nA
c.1